دراسات
في عمارة السورة القرآنية

سورة سبأ

« ١ »

الدكتور محمود البستاني

قال تعالى ﴿بِسْمِ اللّه الرّحمٰن الرّحيم * الحمد لله الذي له ما في السماوات وما في الارض وله الحمد في الآخرة وهو الحكيم الخبير * يعلم ما يلج في الارض وما يخرج منها وما ينزل من السماء وما يعرج فيها وهو الرحيم الغفور * وقال الذين كفروا لا تأتينا الساعة، قل بلىٰ وربّي لتأتينكم عالِم الغيب لا يغزُبُ عنه مثقالُ ذَرّةٍ في السماوات ولا في الارضِ ولا اصغرُ من ذلك ولا اكبرُ إلاّ في كتاب مبين ...﴾.

بهذا المقطع تبدأ سورة سبأ، حيث استُهلّت بظاهرة «الحمد» لله، ﴿الحمد لله الذي له ما في السماوات وما في الارض﴾ وحيث تكرّر الحمد مرةً أخرىٰ بقوله تعالى ﴿وله الحمد في الآخرة﴾.

وهذا يعني ان الاستهلال بالحمد، والتكرار للحمد بالنسبة إلى الحياة الأخروية بالذات، يظلّ هو المحور الفكرّي للسورة، وهو أمر سنجده واضحاً في المقاطع اللاحقة من السورة، ونجده متمثلاً في جملة عناصر فنية، بضمنها: العنصر القصصي الذي وُظّف لانارة الفكرة المشار إليها ...

وقد جاء القسم الاول من السورة (بعد التمهيد المتقدم) منصبّاً علىٰ إبراز أحد جوانبها الفكرية، وهو: تشكيك المنحرفين بقيام الساعة ...، رابطاً بهذا بين مقدمة

السورة ووسطها، حيث نَقَل هذا الجانب من خلال عنصر «الحوار» الآتي: ﴿وقال الذين كفروا لا تأتينا الساعة، قل بلىٰ وربّي لتأتينكم﴾.

انّ هذا «الحوار» ـ بالرغم من كونه قصيراً لمّاحا ـ الا انّه قد شُحِنَ بخصائص فنيّة لها خطورتها في ميدان الإثارة للمتلقّي ... لقد نَقَلَ لنا موقفَ الكافرين من قيام الساعة بعبارة ﴿لا تأتينا الساعة﴾، ونَقَل لنا الجواب علىٰ ذلك بعبارة ﴿بلىٰ لتأتينّكم﴾، حيث ان العبارتين تتضمنان دلالات متنوعة، قد صيغت بنحوٍ مُجمل، ثم فُصّلت بعد ذلك في مقاطع لاحقة، ... يبد ان هذا الإجمال نفسه ينطوي علىٰ دلالة غنيّة، حيث تضمن «الحوار» اولاً نفياً لقيام الساعة من قِبَل الكافرين، وتضمن تاكيداً لقيامها من قِبَل الله تعالى ﴿بلىٰ لتأتينّكم﴾، ... ويُلاحظ، ان عبارة ﴿بلىٰ لتأتينّكم﴾ تضمنت اداتين توكيدتين هما «بلىٰ» و«اللام»، حيث يفصح هذا التوكيد عن دلالة خاصة هي: إبراز مدىٰ الخطأ الفكري الذي يصدر عنه الكافرون في نفيهم لقيام الساعة، اى: جاء الجواب مناسباً (في توكيده) مع «النفي»، .. كما انه تضمّن عنصراً فنّياً آخر هو «التضاد» او «التقابل» بين «لا تاتينا الساعة» وبين «لتاتينكم»، اى التضاد بين النفي والإثبات ...

هنا، لا يكتفي النص بصياغة المحاورة بين الكافرين وبين محمّد صلّى الله عليه وآله، بل يقدّم موقفاً آخر قِبَل المؤمنين بعامة، فيقول ﴿ويرىٰ الذين أوتوا العلم الذي أُنزِل من ربك هو الحق﴾ ... وأهمية هذا الموقف الصادر من المؤمنين تتمثل في كونه يعتمد عنصر «المقارنة» بين طائفتين اجتماعيتين، تتماثلان في انتسابهما الىٰ عامة الناس، إلا ان احداهما تكفر بالله تعالى والاخرىٰ تؤمن به، حيث ان المقارنة بين متماثلين تزيد من قناعة المتلقّي بمشروعية ما يقوله محمد صلّى الله عليه وآله، إذ من الممكن ألاّ يقتنع المتلقي بشخصية تنفرد في موقفها (كالرسول) مثلاً، بعكس ما لو شاركَها جمهور من الناس الاعتياديين ....،

وهو أمر يفسّر لنا السرّ الفنيّ الكامن وراء إبراز النص للموقف المشار إليه ...

ويُلاحَظ ان موقف المؤمنين هو: القناعة برسالة الاسلام، وان موقف الكافرين الذي ابرزه النص، هو: التشكيك بقيام الساعة، ... لذلك عاد النص من جديد لينتقل لنا موقف الكافرين من قيام الساعة، ولكنه يفصّل الاجمال الذي لحظناه في قولهم ﴿لا تأتينا الساعة﴾، متمثلاً في التفصيل الآتي ﴿وقال الذين كفروا هل ندلّكم على رجلٍ ينبّئكم إذا مُزّقتم كل مُمَزّق إنكم لفي خلق جديد افترىٰ على الله كذباً أم به جنّة ...﴾ ... هذا الحوار الجديد يتضمّن خصائص فنية سنشير إليها لاحقاً، ... لكن ما نعتزم توضيحه الآن هو: مدىٰ التلاحم العضوي بين اجزاء السورة الكريمة: من حيث صلة المقدّمة بوسط السورة، ومن حيث التفصيلات لمجملاتها، فيما تفصح مثل هذه الصياغة عن مدىٰ الاحكام الهندسي للنص، بالنحو الذي أوضحناه.

« ٢ »

قال تعالى: ﴿وقال الذين كفروا هل ندلّكم علىٰ رجل ينبئكم إذ مُزّقتم كلّ ممزَّق إنكم لفي خلق جديد افترىٰ على الله كذباً أم به جنة، بل الذين لا يؤمنون بالآخرة في العذاب والضلال البعيد ...﴾.

هذا المقطع من سورة سبأ، يفصّل ما أجْمَلَتْهُ مقدمةُ السورة التي جاء فيها على لسان الكافرين ﴿وقال الذين كفروا: لا تأتينا الساعة﴾ حيث قلنا انّ مقدمة السورة تحوم حولَ موضوعين هما «قضية اليوم الآخر» وقضية الحمد والشكر لله علىٰ عطاءاته ...

اما اليوم الآخر، فقد طُرِحَ موضوعُه من خلال الحوار الجمعي الذي اجراه النصُّ على ألسنة الكافرين بهذا النحو ﴿وقال الذين كفروا هل ندلّكم علىٰ رجل

ينبّئكم إذ مُزّقتم كلّ ممزّق إنكم لفي خلق جديد افترىٰ علىٰ اللّه كذباً ام به جِنّة ..﴾ .. إنّ انتخاب النص لهذا الشريحة من محاورة الكافرين فيما بينهم، ينطوي علىٰ أسرار فنيّة تستهدف فضح التخلّف الفكري لدىٰ الكافرين، فضلاً عن الاضطراب النفسي الذي يغلّف شخصيّاتهم،... فهولاء يتحاورون فيما بينهم علىٰ وجه التساؤل ﴿هل ندلّكم علىٰ رجل..﴾ حيث لا ضرورة لان يدلّ بعضُهم البعضَ الآخر علىٰ رجل يخبرهم بحقيقة اليوم الآخر، بقدر ما يمكن أن يتقبلوا أو يرفضوا دعوته في ضوء مناقشتها ومُدارستها، ... أمّا أن يدل بعضُهم البعض الآخر علىٰ صاحبها، فلا يحمل ايّ مسوّغ عقلي بقدر ما يكشف هذا الأمر علىٰ الاضطراب الفكري والنفسي لدىٰ الكافرين ... ويُلاحَظ أيضاً، ان المنطق الذي ارتكنوا إليه في إنكار اليوم الآخر، قَد اتّسم بنفس الاضطراب الذي طبع شخصيتهم، ... فهم ينكرون امكانية خلق الانسان أو بعثه من جديد من خلال استبعادهم امكانية ان يُبعث الانسان الذي مُزّقَ كلّ ممزّق ... وعبارة ﴿هل ندلكم علىٰ رجل ينبّئكم إذا مُزّقتم كلّ ممزّق إنكم لفى خلق جديد﴾ قد تُوحي للمُلاحظ العابر بانها ذات بُعد استدلالي عميق، بصفة ان تمزيق الشيء كل ممزق يعني استحالة تأليفه من جديد ... لكن، اذا اخذنا بنظر الاعتبار ان خلق الانسان في البدء ينطوي علىٰ قُدرات مماثلة، حينئذٍ ينطفيء استدلالهم أساساً، وهو ما يكشف عن الانغلاق الفكري لديهم: كما هو واضح ...

والآن، حيث ندع الموضوع المرتبط باليوم الآخر، ونتجه إلى الموضوع الآخر الذي طرحته مقدمة السورة، ونعني به: مطالبة النص بالحمد والشكر لعطاءات الله تعالى، نجد ان النص يقدّم مجموعة من القصص التي تُوظَّف لإنارةِ هذا الجانب ... والقصص هي: قصص داود وسليمان وسبأ، حيث جاءت قصتا داود وسليمان موظَّفتين لإبراز الشخصيات الايجابية التي تمارس عملية الحمد أو

الشكر، ... وجاءت قصة سبأ لتبرز الشخوص السلبيين الذي يكفرون بمعطيات الله تعالى ... ويُلاحَظ (من حيث البناء الهندسي للقصص) ان النص لم يكتفِ بابراز هذين النموذجين المتقابلين من الشخصيات (الشخصيات الشاكرة، والشخصيات الكافرة)، بل ضمّن هذا الجانب الفكري (الشكر ومقابله الكفر بِنعم الله تعالى) عباراتٍ صريحة: تأكيداً لأهمية الشكر لله تعالى وانعكاساته علىٰ الشخوص، ... وهذا ما نلحظه في تعقيب النص علىٰ قصتي داود وسليمان بقوله تعالى ﴿**اعملوا آل داود شكراً وقليل من عبادي الشكور**﴾، وفي تمهيده لقصة سبأ بقوله تعالىٰ ﴿**كلوا من رزق ربكم واشكروا له**﴾ ... فالقصص طالبت بان يمارس الانسانُ عمليةَ «الشكر» لله تعالى، ... طالبت آل داود بالشكر (وهم شخوص ايجابيون)، وطالبت اهل سبأ بالشكر أيضاً (وهم شخوص سلبيون)، ثم رتّبت آثاراً كبيرة علىٰ الشكر وعدمه، حيث سخرت لداود الحديد، وحيث جعلت الجبال والطير تشاركه في التسبيح كما سنرىٰ، ... وحيث سخرت لسليمان الريحَ والجنّ وسواهما، ... وكل اولئك: انعكاس لعملية الشكر، ... وهذا علىٰ العكس من اهل سبأ حيث كفروا بنعم الله تعالى، فيما ترتّب علىٰ ذلك: تبديل مزارعها العامرة بارض لا غناء فيها. ... والمهم، ان العنصر القصصي.. كما لحظنا ونلحظ ذلك مفصلاً في مقاطع لاحقة من السورة الكريمة .. قد تلاحمت اجزاؤه عضوياً، كما انه قد التحم مع فكرة السورة التي تحوم علىٰ مفهوم الشكر، مما يفصح ذلك عن مدىٰ الاحكام الهندسي للنص.

« ٣ »

قال تعالىٰ ﴿**وَلَقَدْ آتينا داودَ مِنّا فضلاً، يا جبالُ أوّبي معه والطَّيْرَ، وألَنّا لهُ الحديدَ**

أنِ اعملْ سابغاتٍ، وقدِّرْ في السَّردِ واعملوا صالحاً إنّي بما تعملون بصير ...﴾ .

هذا المقطع من سورة سبأ يتضمّن أقصوصة داود عليه السلام حيث وُظِّفت لانارة فكرة السورة التي تقوم علىٰ مفهوم «الشكر» لله تعالى علىٰ معطياته .. وقد تضمنت الاقصوصة كلاً من «معطيات» الله تعالى، و«المطالبة بالشكر» عليها، حيث قال تعالى ﴿ولقد آتينا داود منّا فضلاً﴾ ... وهذا هو «المعطىٰ»، وحيث قال تعالى ﴿اعملوا آل داود شكراً﴾ .. وهذا هو المطالبة بالشكر علىٰ ذلك، ... والمهم ان الاقصوصة (من حيث المبنىٰ العماري) قد أُحكِمتْ علاقتها بهذه السورة من جانب، كما أُحكِمت علاقة اجزائها بعضها مع الآخر من جانب آخر، فضلاً عن إحكام علاقتها بالاقاصيص التي اعقبتها من جانب ثالث ...

اما علاقة هذه الاقصوصة باجزائها فتتمثل في صياغتها مُجملةً اولاً، ثم صياغتها مفصّلة ثانياً، حيث طرحت الاقصوصة مفهوم «النعمة» أو «المعطىٰ» او «الفضل» ﴿ولقد آتينا داود منّا فضلاً﴾ ، وحيث فصلت مفهوم «الفضل» بقوله تعالى ﴿يا جبال اوّبي معه والطير وألنّا له الحديد ان اعمل سابغات وقدّر في السرد﴾ ، فالملاحظ ان الاقصوصة فصّلت الحديث عن المعطيين الاعجازيين، وهما: تسبيح الجبال والطير، وإلانة الحديد، امّا تسبيح الطير والجبال، فيشير الىٰ معطى عبادي ضخم بحيث يقترن تسبيح داود مع ترجيع الجبال والطير لتسبيحه ... ومن الواضح، ان عملية «التسبيح» تنطوي علىٰ جملة من الدلالات، منها: ان معطيات الله تعالى بالرغم من كونها عامة لجميع المخلوقات الكونية، الاّ انها ـ في الآن ذاته ـ تتحدد بمقدار ما يمارسه العبد من عمل الطاعات، ... فإذا عدنا إلى شخصية داود عليه السلام لحظنا ان طاعته لله تعالى بلغت مستوىً قد أُثيب عليه بمطالبة الطير والجبال بان ترجّع تسبيحه، بل ان «التسبيح» نفسه، يمكن ان يجسّد واحداً من مفهومات «الطاعة» التي تستهدف الاقصوصةُ إبرازه، ... لذلك، عندما

يبرز النصُ او الاقصوصةُ مفهومَ التسبيح عند داود، حينئذٍ يستخلص المتلقّي - بصورة غير مباشرة - اهمية «التسبيح» من حيث كونه عملاً عبادياً ذا خطورة وأهمية ...

وهذا كله فيما يتصل بأحد المعطيات التي منحها الله تعالى لداود ... أمّا المعطىٰ الآخر، فيتمثل في معطىً مادي قبالة المعطىٰ الروحي ... المعطى المادي هو: إلانة الحديد ... بيد ان ما ينبغي استخلاصه من هذا المعطى هو أن عمل الطاعة لا يتحدد في صعيد روحى أو مادي بقدر ما يصبّ في شتىٰ الوان النشاط البشري، ومنه: كسب الرزق، ... فالشخصية العبادية مطالبةٌ بان تعمل من اجل تحصيل المال الذي تستخدمه وسيلةً لممارسة الطاعة، ... وعندما يلين اللهُ تعالى الحديدَ لداود، فهذا يعني ان الله تعالى قد ضخّم حجم المعطى المادي لداود بحيث ألان له الحديد الذي يتطلب تذويبه في النار: بما يواكب عملية التذويب من وسائل مادية وبشرية، حيث أعفاه تعالى من استخدام ذلك، من خلال إلانة الحديد ... وهذا معطىً ضخم كل الضخامة، فضلاً عن كونه ظاهرة اعجازية وليس مجرّد تيسير للعمل، بصفة ان تيسير العمل، عندما يقترن بما هو اعجازي خارق لقوانين الكون التي رسمها الله تعالى في صياغات ثابتة عامة، حينئذٍ يكشف مثل هذا الاعجاز عن درجة ضخمة من المعطيات، وهو ما يستهدف النصُ ابرازَه: تأكيداً للحقيقة الذاهبة إلىٰ ان «الطاعات» يُثاب عليها دنيوياً وأخروياً بقدر حجمها الذي تصدر عنه الشخصية العبادية ...

تأسيساً علىٰ ما تقدّم، ما دمنا نُعنى - في هذه الدراسات بعمارة السورة الكريمة وبعناصرها - يمكننا ان نتبيّن الآن مدىٰ جمالية العمارة القصصية التي قامت علىٰ فكرة «معطيات» الله تعالى، و«الشكر» عليها، حيث بدأت الاقصوصة بطرح «مجمل» للموضوع المُشار اليه، ثم «فصّلت» الحديث عنه بالنحو الذي

أوضحناه، ... ويمكننا أيضاً ان نتبيّن مدىٰ جمالية العمارة القصصية المذكوره من حيث صلتها بعمارة السورة الكريمة (سبأ)، فيما وُظفت الاقصوصة لانارة افكار السورة التي تحوم علىٰ مفهوم «الشكر» في أحد جوانبها، مما يفصح ذلك كله عن مدىٰ، إحكام النص: من حيث صلة اجزائه: بعضها مع الآخر، بالنحو الذي فصّلنا الحديث عنه.

للبحث صلة